

تونس: الإقصاء مناخ سياسي وفكري يعيق الديمقرatie

كتبه نور الدين العلوي | 4 يونيو, 2021



المتأمل في التاريخ السياسي الحديث في تونس (ويمكن دوماً التعميم عربياً)، يرى أن العمل السياسي تقدم دوماً عبر آلية الاستيلاء السياسي على الأفكار وتملُّكها واتخاذها قاعدة لإقصاء المختلفين.

فعبر تاريخ دولة الاستقلال، كانت هناك عمليات متتابعة من الاستيلاء التجاري على أصول الأفكار المؤسسة، أعني الاستحواذ السياسي واحتكار التكلم باسمها، ومن ثمة إقصاء كل من لا يتبع المستوى.

هذه العملية الاستحواذية تكشف من ناحية وجود مشتركات سياسية، ولكنها تكشف أيضاً أن المشتركات لم ترقِ إلى عنصر موحد جامع، تبني عليه الديمocratie، وذلك لقصور نظر سياسي عند النخب المتقدمة للشأن العام، يعود بالأساس لطبيعة تكوينها غير الديمocrati، ولخلوها الفكري، وقد أخر هذا الأمر بناء الديمocratie وأجل التمتع ببنائها والبناء عليها.

الزعيم الاستحواذى

استولى الزعيم على فكرة الاستقلال وقيادة حرب التحرير، ثم استولى على البناء، واستعمل كل هذه الرمزيات في ترسیخ مكانته في السلطة وأقصى كل معارضيه، حق صار هو الدولة، فغابت كل الأسماء وانعدم التاريخ إلا تاريخ الزعيم.

وظل العالم لا يعرف من تونس إلا وجه الزعيم، وابتسامته المنتصرة. لم تكن هناك دولة كان هناك الزعيم وحده، حتى ظنّ عوام الناس في الداخل أن المطر ينزل بأذنه. وسيمر ربع قرن كامل على هذا الحال، حتى يبدأ هؤلاء العوام ينتجون نصاً ساخراً من وهم الزعيم.

منع ذلك تبلور أفكار المشاركة في إدارة الشأن العام، وحصر القرار بيد فرد، ما منع بناء الديمقراطية.

خبية نخبة الاستقلال التي أقصاها الزعيم وطمس تاريχها، ستفسح الطريق ليلاً ونخب أخرى خارج سردية الزعيم، لكن الإيمان بدور زعيم وحيد سيستمر على شكل معتقد جذري في بقية مكونات المشهد السياسي، وهي رؤية مشوّهة للعالم ملخصها لا يمكن إنجاز شيء من دون زعيم فذ.

وحق اللحظة تعيش الكتل السياسية من الداخل وضعًا مشابهًا لحزب الدستور (البورقيبي).

اليسار هو الحداثي الوحيد

لاحظًا، وعند اكتشاف الشبيبة المتعلمة الأفكار الثورية والقادمة، حين كانت موضة عالية تتسع بنجمة تشي جيفارا، استولى اليسار على فكرة العدالة الاجتماعية من السلطة ومن المعارضين الجدد، وكانوا قلة ليرالية ذات منشأ أرستقراطي، وُطرد منها كل من ليس يسارياً أممياً، حتى القوميين القائلين بالاشتراكية العربية، وكانت موضة شرقية تبحث عن مواعدة مستحيلة بين العرب والماركسيّة.

الساحة الثقافية التونسية تعيش حتى اللحظة حالة من التكفير الحداثي، يصل تطرفها إلى قطع أرزاق من لم يؤمن مع اليسار بحداثته الخاصة.

وعندما سيخفت اهتمامه بالمسألة الاجتماعية، نتيجة مواجهة فاشلة مع الزعيم الأوحد ونظامه، سيولي وجراه إلى الحرب الثقافية، وسيستولي على فكرة الحداثة بصفتها قلب العمل الثقافي الثوري، ويحتكر تمثيلها ويقضى على كل من ليس حداثياً على طريقته.

كانت لديه صيغة واحدة للحداثة، وكل ما عداها باطل أو تحريف أو فكر يميني رجعي. تحول الأمر

إلى ما سميـناه في كتابة سابقة بإـكـلـيرـيوـسـ الحـدـاثـةـ، وهـنـاكـ بـوـابـاتـ دـخـولـ ضـمـنـ الطـائـفـةـ الـحـدـاثـيـةـ، أولـهاـ أـنـ يـعـدـمـ الـرـءـ منـ فـكـرـهـ كـلـ اـحـتمـالـ لـوـجـودـ حـدـاثـةـ مـغـاـيـرـةـ.

والـسـاحـةـ الـثـقـافـيـةـ التـونـسـيـةـ تـعـيـشـ حـقـ الـلحـظـةـ حـالـةـ منـ التـكـفـيرـ الـحـدـاثـيـ، يـصـلـ تـطـرـفـهـ إـلـىـ قـطـعـ أـرـزـاقـ منـ لـمـ يـؤـمـنـ مـعـ الـيـسـارـ بـحـدـاثـتـهـ الـخـاصـةـ، وـيـكـفيـ أـنـ نـتأـمـلـ مـنـطـقـةـ نـفـوذـ/ـ تـحـرـكـ الـيـسـارـ الـحـدـاثـيـ حولـ وـزـارـةـ الـثـقـافـةـ، لـنـرـىـ الـمـسـتـفـيدـيـنـ وـنـحـسـبـ الـضـحـايـاـ.

الإسلاميون يستولون على الإسلام

عـنـدـماـ ظـهـرـ الإـسـلـامـيـوـنـ، اـسـتـولـواـ عـلـىـ الإـسـلـامـ وـتـكـلـمـواـ كـمـاـ لـوـ أـنـهـمـ الـمـؤـمـنـوـنـ الـوـحـيـدـوـنـ، وـوـضـعـواـ خـلـفـ الـخـطـابـ الـتـرـبـويـ وـالـوعـظـ قـائـمـةـ بـأـفـكـارـ كـافـرـةـ، وـعـمـلـواـ عـلـىـ أـنـ يـكـوـنـ الـأـمـرـ بـالـعـرـوـفـ وـالـنـهـيـ عـنـ الـنـكـرـ اـخـتـصـاـصـاـ أـوـ مـنـطـقـةـ نـفـوذـ.

وـعـنـدـماـ اـكـتـشـفـواـ أـنـ الـدـيـنـ سـابـقـ عـلـيـهـمـ، وـأـنـ هـنـاكـ مـؤـمـنـيـنـ آـخـرـيـنـ، بـدـؤـواـ فـيـ تـعـدـيلـ الـخـطـابـ، فـاـكـتـشـفـواـ الـخـطـابـ الـاجـتمـاعـيـ وـفـكـرـةـ الـحـدـاثـةـ وـالـدـيمـقـراـطـيـةـ السـيـاسـيـةـ، وـعـمـلـواـ عـلـىـ أـخـذـ قـسـطـهـمـ مـنـ كـلـ ذـلـكـ.

وـهـنـاـ اـخـتـلـطـتـ مـسـائـلـ كـثـيرـةـ. فـقـدـ حـارـبـ النـظـامـ وـالـيـسـارـ اـحـتـكـارـ الإـسـلـامـيـنـ لـلـإـسـلـامـ، وـصـارـ هـنـاكـ تـكـفـيرـ لـلـتـكـفـيرـ، وـعـنـدـماـ عـدـلـواـ مـوـقـفـهـمـ مـنـ النـقـابـاتـ وـأـدـاوـرـهـاـ فـيـ مـحاـوـلـةـ لـلـاستـحـواـذـ عـلـىـ حـدـيثـ الـعـدـالـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ، دـخـلـواـ مـنـطـقـةـ نـفـوذـ الـيـسـارـ فـطـرـدـهـمـ مـنـهـاـ، فـصـارـواـ عـلـىـ جـبـهـتـيـنـ يـدـفـعـونـ عـنـهـمـ غـائـلـةـ السـلـطـةـ مـحـتـكـرـةـ الـدـيـنـ، وـغـائـلـةـ الـيـسـارـ مـحـتـكـرـ الـعـلـمـ الـنـقـابـيـ/ـ الـاجـتمـاعـيـ

فـلـمـاـ تـبـلـورـ حـدـيثـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ، خـفـفـواـ حـدـيثـ الـوعـظـ وـتـقـدـمـواـ لـلـمـشـارـكـةـ، فـفـتـحـتـ عـلـيـهـمـ الـجـبـهـةـ الـثـالـثـةـ:ـ هـمـ أـعـدـاءـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ، وـحـوـكـمـواـ عـلـىـ النـوـاـيـاـ لـاـ عـلـىـ الـأـفـعـالـ، الـقـيـ كـانـتـ مـتـطـابـقـةـ مـعـ بـقـيـةـ الـأـفـعـالـ الـدـيمـقـراـطـيـنـ، مـثـلـ طـلـبـ الـعـلـمـ الـحـزـبيـ الـقـانـوـنـيـ وـإـصـدـارـ الصـحـافـةـ وـالـمـشـارـكـةـ فـيـ الـفـعـالـيـاتـ الـدـينـيـةـ.

وـعـنـدـماـ تـبـلـورـ خـطـابـ الـحـدـاثـةـ، خـاصـةـ فـيـ مـفـتـحـ الـقـرـنـ الـ21ـ، وـضـعـواـ خـارـجـهـ باـعـتـبـارـهـمـ يـمـيـنـاـ دـينـيـاـ مـعـادـيـاـ لـلـتـقـدـمـ، وـكـانـواـ فـيـ كـلـ هـذـهـ الـمـرـاحـلـ يـتـنـقـلـونـ بـيـنـ سـجـونـ الـنـظـامـ وـيـوـاجـهـونـ آـتـهـ الـدـعـائـيـةـ الـقـيـ استـولـيـاـنـاـ الـيـسـارـ وـتـيـارـ الـحـدـاثـةـ عـامـةـ، وـمـنـعـهـمـ مـنـ التـعـبـيرـ عـنـ ذـوـاتـهـمـ.

نـظـنـ أـنـ وـقـئـاـ آـخـرـ سـيـنـفـقـ قـبـلـ دـحـضـ بـقـيـةـ الـمـسـلـمـاتـ الـرـائـجـةـ عـنـ حـدـاثـةـ الـحـدـاثـيـ، وـعـنـ عـرـوـيـةـ الـعـرـوـيـ، وـعـنـ إـيمـانـ النـخـبـةـ السـيـاسـيـةـ عـامـةـ بـالـدـيمـقـراـطـيـةـ. حـيـنـهـاـ سـنـدـخـلـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ.

لقد كرست فكرة نهائية إن الإسلام معاً لدنية الدولة، مهما فعل من أفعال مدنية بما فيها تغيير سجنته واسمه. ورسخت الآلة الدعائية الميسية أفكاراً وحولتها إلى مسلمات غير قابلة للمراجعة. فلا يمكن أن يكون الفرد الإسلامي حداثياً أو ديمقراطياً، ولا يمكن أن يصطف مع الفقراء ويدافع عنهم.

مناخ إقصائي لا يراجع نفسه

تولد الديمقراطية التونسية في هذا المناخ الإقصائي، لذلك تتعرض إلى عوائق من داخلها قبل العوائق العادلة لها من الخارج.

ومن وسائل الترسيخ الطرق التواصل على المسلمين/ المغالطات، وعدم السماح بقلب السؤال: هل كان الزعيم الأوحد زعيماً فعلاً؟ هل الحداثي التونسي حداثي فعلاً وتونسي فعلاً؟ وهل الديمقراطي التونسي ديمقراطي فعلاً؟ وهل الإسلامي التونسي هو المؤمن الوحيد؟

لقد كان يجب مرور وقت طويل نسبياً ليُطعن في شرعية الزعيم النضالية، ويعاد توزيع الحقوق التاريخية على أصحابها الذين حملوا الكثير من وزر معركة التحرير، وكان هذا نتيجة لضغط مستمر على مراجعة مسلمة الزعيم.

ونعain أن الضغوط السياسية، وبعضها بوسائل أمنية، قد جعلت الإسلاميين يعذّلون دوماً من مواقفهم وأفكارهم، ونرى أن بقاء اليسار وتيار الحداثة عموماً خارج كل الضغوطات التي يسلطها هو على غيره، تركه حق الآن في منطقة مريحة، وهذا الاستراحة الفكرية ستؤدي إلى انحساره إذ توجّل كل مراجعة نقدية.

ونظن أن وقتاً آخر سينفق قبل دحض بقية المسلمين الرائجة عن حداثة الحداثي، وعن عروبة العربي، وعن إيمان النخبة السياسية عامة بالديمقراطية. حينها سندخل الديمقراطية.

رابط المقال : <https://www.noonpost.com/40866>